

مرثية زينب بنت الطثرية / جمع وتحقيق
مع دراسة تحليلية لمراثي
الخنساء وزينب
وأبي تمام

بحث تقدمت به
أ.م.د. ليلى محمد الحيالي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

ليس من السهل على الشعراء ان يختاروا كلمات تخلّد ذكراهم ، وليس سهلاً ان يأتوا بعاطفة تقتحم عواطف الآخرين ، ولا سيما في حالات الألم والشوق لصياغة فرائد خالدة ، وعقد منضد فيه صور ملونه بألوان الحزن التي يحسّها الشعراء ، وإيحاءات تبقى نديّة في مشاعر الآخرين ، حيّة في آذانهم تسترق قلوبهم ، اشعار تدعو الى اليأس والجزع ، فيها صور اقترن فيها الصدق الواقعي بالصدق الفني ، صورة الحسرة مع السرور ، اليأس مع الامل ، الحب مع الكراهية ، صور تبعد البهجة عن النفوس وتنتزع منها الفرح .

في مرثيات ثلاث تشابهت معانيها وألفاظها وأوزانها وقوافيها ، مع تباين كل مرثية منها عن الأخرى زمنياً ، فقصيدة الخنساء في صدر الاسلام وقصيدة زينب بنت الطثرية في مطلع القرن الثاني للهجرة وقصيدة أبي تمام في مطلع القرن الثالث للهجرة ، ومع هذا البعد الزمني بين هذه المرثيات الثلاث ، فإننا نراها مستوحاة من شعر الخنساء ومرثياتها لأخويها و أبنائها الأربعة وزوجها .

وتختلف هذه القصائد أيضاً في عدد أبياتها ، فللخنساء ثلاثة عشر بيتاً ، ولزينب ثلاثة وعشرون بيتاً ، ولأبي تمام اكثر من عشرين بيتاً .

وقد جاءت قصيدة الخنساء التي حققها المرحوم (لويس شيخو) في عشرة أبيات ألحقها بثلاثة أبيات أخرى من الكتاب نفسه جعلها شيخو قطعة منفصلة عن الأولى ولكنها لا تختلف عنها لفظاً ولا مضموناً ولا قافية ولا وزناً ، أما قصيدة زينب فقد جمعت شتات أبياتها من بطون الكتب القديمة و كتب الأدب والتراث وحققتها تحقيقاً علمياً وخرّجت أبياتها وشرحت ألفاظها وبيّنت منهج التحقيق .

أما قصيدة ابي تمام فهي منشورة في ديوانه في طبعاته المتعدّدة ، لذلك لم أذكر منها إلا ما كان متطلباً في سياق البحث ، تجنباً للإطالة .

وكتبت شيئاً عن حياة زينب بنت الطثرية لأنها لم تكن معروفة في الأوساط الأدبية ولم تكن لها تلك الشهرة والمكانة المعروفة التي اشتهر بها أخوها يزيد بن الطثرية . أما الخنساء وأبو تمام فلم اكتب عن حياتهما شيئاً بسبب الشهرة والمعرفة المرموقة لدى الباحثين .

وتناولت بالدرس والتحليل المرثيات الثلاث بحسب تسلسلها الزمني ، وبيّنت أوجه الاختلاف والتشابه بينها ، والموسيقى الشعرية التي تجمع بينها في خضمّ البحر الطويل .

أما عن تقسيم البحث فقد شمل مبحثين كان الأول منها يشتمل على مرثية زينب وتحقيقها ومنهج التحقيق وتخريج الأبيات ، وكان المبحث الثاني مشتملاً على تحليل القصائد الثلاث ، وختمت البحث بخاتمة موجزة أظهرت فيها نتائج البحث .

المبحث الأول :

شعر زينب بنت الطثرية جمع وتحقيق

١- منهج التحقيق :

ينطوي منهج التحقيق على الأسلوب العلمي في التحقيق الذي درج عليه المحققون في عملهم وذلك بتقديم المصدر المتقدم ثم المتأخر مراعاةً للتسلسل التاريخي . فضلاً عن ذلك مراعاة أي المصادر يكون فيها النص الشعري أطول من غيره في المصادر الأخرى . وقد تدرجت في ذكر روايات المصادر المتعددة للنص الواحد مع بيان الاختلاف بينها ، وشرحت بعض الألفاظ غير المعروفة لدى عامة الباحثين وقد أشرت إلى أرقام الصفحات والأجزاء للمصادر المختلفة في المرة الأولى ، وتركت الإشارة إليها فيما بعد لأنني سوف أشير إليها بالتفصيل في صفحة التخرجات بعد نهاية تحقيق القصيدة ، تجنباً للتكرار ، وهو أسلوب اتبعته في أكثر النصوص التي حققتها سابقاً . ثم خرّجتُ الأبيات وبيّنتُ عددها في كل مصدر نقلتُ عنه وأشرت إلى مواضع الاختلاف في تسلسل الأبيات لدى المصادر المتنوعة .

٢- (شعر زينب بنت الطثرية)

تحقيق النص .

المبحث الأول
شعر زينب بنت الطثرية

شعر زينب بنت الطثرية *

- (١) أرى الأثل من وادي العقيق مجاوري
مقيماً وقد غالت يزيد غوائله (١)
- (٢) فتى قَدْ قَدَّ السيفِ لا متصائلٌ
ولا رهلٌ لبأته وبأدله (٢)

(*) زينب بنت الطثرية اخت الشاعر يزيد بن الطثرية ، احد بني سلمة الخير بن قشير قتل في ١٢٦ هـ ، رثته بقصيدتها التي حققتها وجمعت ابياتها من بطون الكتب . (ينظر الاغاني ٧ / ١٢٠) .

أمالى القالي ٨٧ / ٢ - ٨٨ ، الأبيات ١ - ١٦ .

من حماسة البحترى ٢٧٥ البيت ٢٣ .

من البيان والتبيين ١٢٣ / ١ البيت ١٧ .

من الأغاني ١٢٣ / ٧ و ١١ / ١٥٢ الأبيات ٢٠ - ٢٢ .

من وفيات الأعيان ٤١٧ / ٥ الأبيات ١٨ - ١٩ . والحماسة البصرية ٢٢٢ / ١ .

(١) في حماسة البحترى والأغاني والأشبه والنظائر ووفيات الأعيان والحماسة البصرية : من بطن العقيق .

في الشعر والشعراء : في جنب العقيق مجاورا .

الأثل : نوع من الشجر .

العقيق : كل سيل ماء شقه السيل في الأرض فانهره ، ووسعه فهو عقيق ، وفي بلاد العرب أربعة أعقة وهي

أودية عادية شقتها السيول ، فمنها عقيق عارض اليمامة ، وهو وادٍ واسع مما يلي العرمة .

وقال السكوني : عقيق اليمامة لبني عقيل فيه قرى ونخل كثير ، ويقال له عقيق ثمرة ، ومنها عقيق بناحية

المدينة ، وعقيق البصرة وغور تهامة (ينظر : معجم البلدان ١ عقيق) .

اما عن هذا البيت فقد روى الخالديان في الأشباه والنظائر ٢ / ٣٣٥ ان هذا البيت أخذته أخت الوليد بن

طريف الشاري فرثت أباها بمثله .

(٢) في الشعر والشعراء ٤٣٣ / ١ : لا متقاذف ... وأباجله

في الحماسة والحماسة البصرية والدر المنثور ٢٣٥ : وأباجله .

في سمط اللآلي ٢٤٣ / ١ : ولا رهين ...

ويقول الخالديان في شرح البيت والذي بعده : (أما قولها قَدْ قَدَّ السيف) .

وقولها : فتى لا يرى خرق القميص ... انه لطيف البطن مضمحل الخصر ، وهذا عندهم غاية المدح للصعلوك

والفارس ، بل يروونه مدحا لعظيم القدر فاما الفارس فيمدح بالحنافة ، فتقول : ان خصره غير منتفخ لضمرة ،

فما يتخرق قميصه في خصره ، لذلك ، بل ، تتخرق اكتافه من نجاد سيفه ، ويجوز ان تكون مناكبه قليلة اللحم

فيمزق قميصه . وقَدْ قَدَّ السيف : وصفته بهذه الصفة للدلالة على مضاء عزمه . ينظر الأشباه والنظائر

٤١٧ / ٥ .

المتضائل : النحيف .

الرهل : المسترخي .

لباته : اللبة ، المنحر .

بأدلته : واحدها بادله وهي اللحم التي بين المنكب والعنق ، وينظر امالي القالي ٨٨ / ٢ .

اباجله : مفردها أبجل وهو عرق غليظ في الرجل او في اليد .

(٣) فِتَى لَا تَرَى قَدَّ الْقَمِيصِ ِ بِخَصْرِهِ
ولكنها تُوهِى الْقَمِيصَ كَوَاهِلُهُ (١)

(٤) فِتَى لَيْسَ لِابْنِ الْعَمِّ كَالذَّنْبِ إِنْ رَأَى
بِصَاحِبِهِ يَوْمًا دَمًا فَهُوَ آكُلُهُ (٢)

(٥) يَسْرُكُ مَظْلُومًا وَيُرْضِيكَ ظَالِمًا
وَكُلَّ الَّذِي حَمَلْتَهُ فَهُوَ حَامِلُهُ (٣)

(١) في البيان والتبيين وحماسة البحتري والأشباه والنظائر :

لا يُرى خرق القميص بخصره ...
في الحماسة البصرية : لا يرى بقصره
قَدَّ القميص : شقه طولاً ، القَدَّ بالكسر ، سيرٌ من جلد غير مدبوغ .
توهي القميص كواهله : لطول الدرع وتقلد السيف .
وهي وهياً يهَي : تخرق وانشق ، وفي المثل :

خَلَّ سَبِيلَ مَنْ وَهَى سَقَاؤُهُ
وَمَنْ هُرِيْقَ بِالْفَلَاقَةِ مَاؤُهُ

كواهله : جمع كاهل ، وهو ما بين الكتفين .

(٢) في الأشباه والنظائر (٣٣٦/٢) يقول الخالديان : ان صاحب المنطق " أي أرسطو " يذكر ان الذئب اذا كان عليه أدنى دم اجتمعت عليه الذئاب ، فتوزعته بينها أشلاء ، ومثله قول الفرزدق :

وكننت كذئبِ السوء ِ لما رأى دما
بصاحبه يوماً أحالَ على الدمِ ِ

(٣) في لسان العرب :

يُعِينُكَ مَظْلُومًا وَيَنْجِيكَ ظَالِمًا
ويشرح ابن منظور البيت بقوله : ان ظلمتَ فطولبتَ بظلمك حماك ، ومنع منك .

(٦) إذا نزل الأضيافُ كان عَدْوَرًا
عَلَى الْحَيِّ حَتَّى تَسْتَقِلَّ مَرَاجِلُهُ ١)

(٧) إذا ما طَهَّهَا لِلِقَوْمِ كَانَ كَأَنَّهُ
حَمِيٌّ وَكَانَتْ شَيْمَةً لَا تُزَايِلُهُ ٢)

(٨) إذا القومُ أمَّوا بيتهُ فهو عامِدٌ
لأحسنَ ما ظنَّوا بهِ فهو فاعِلُهُ ٣)

(١) في عيون الأخبار ٢٣٩/٣ : على الأهل مراجلُهُ
في حماسة البحترى : حتى تستقر مراجله
في الأغاني : اذا نزل الضيفان
في الدر المنثور : كان عَدْوَرًا (تصحيف) .
عَدْوَرٌ : سيء الخلق ، قليل الصبر فيما يريد به ويهتم به .
وقال ابن قتيبة في عيون الاخبار ٢٣٩ / ٣ : يُسَوِي خَلْقَهُ حَتَّى يَطْعَمَ أَضْيَافَهُ لِإِعْجَالِهِ إِيَاهُمْ وَلِخَوْفِ تَقْصِيرِ
يَكُونُ مِنْهُمْ ، وَإِنَّمَا جَعَلْتَهُ عَدْوَرًا لِشِدَّةِ تَحْمُسِهِ بِأَمْرِ الْأَضْيَافِ وَحِرْصِهِ عَلَى تَعْجِيلِ قِرَاهِمَ حَتَّى تَسْتَقِلَّ
المرجل على الأثافي ، والمرجل : القدور واحدها مرجل .
(ينظر لسان العرب عذر) .
هذا المعنى مأخوذ من قول زهير بن ابي سلمى في حسن مداراة الناس :

تراه إذا ما جئته متهللاً
كأنك تعطيه الذي أنت سائله

مراحل : جمع مرحلة ، والراحلة : المركب من الابل .
تستقل : استقل ، انتصب على الأثافي ، واستقل القوم : مضوا وارتحلوا .

(٢) حَمِيٌّ : اي محمي ، اي الممنوع من الطعام .

(٣) في حماسة البحترى : لأحسن ما أقوله وهو فاعله
في الاغاني والاشباه والنظائر : لافضل ما أقوا له فهو فاعله .
أمَّوا : قصدوا .

(٩) إِذَا جَدَّ عِنْدَ الْجَدِّ أَرْضَاكَ جَدُّهُ
وَذُو بَاطِلٍ إِزِينُ شَتَّتَ أَرْضَاكَ بَاطِلُهُ (١)

(١٠) مَضَى وَوَرِثَاهُ دَرِيْسَ مَفَاضَةٍ
وَأَبْيَضَ هِنْدِيًّا طَوِيلًا حَمَائِلُهُ (٢)

-
- (١) في الحماسة : ان شئت الهاك باطله
في الاغاني : اذ جد عند الظلم ارضاك جدّه
وذو باطل ان شئت الهاك باطله .
في الاشباه والنظائر : اذا كان خير الجد ارضاك جدّه ...
- (٢) في ديوان الحماسة : حمائله (اظنه تصحيفا) .
في البيان والتبيين : مضى فورثاه
في الاغاني : مقيما سلبناه دريس مفاضة .
في الدر المنثور : مضى وورثنا منه درعا مفاضة .
في اعلام النساء ٧٢/٢ : مضوا وورثنا دريس .
الدّرس : والدّريس : الثوب الخلق وجمعه ، دريسان ، والهدم والظمر ، والسمل ، والنهج ، الخلق ايضاً .
(شرحها القالي في الأمالي ٨٨ /٢) .
المفاضة : الواسعة .
هنديا : وهند وانبا سيف مصنوع من حديد الهند .
حمائله : قال الاصمعي : حمائل السيف لا واحد لها من لفظها وهي علاقة السيف (ينظر مختار الصحاح حمل) .
حمائله : جمع خميلة ، الطنفسة ، الشجر الكثيف .

- (١١) فتي كان يروى المشرفي بكفه
ويبلغ أقصى حجرة الحي نائله (١)
- (١٢) كريم إذا لاقيته متبسماً
وأما تولى أشعت الرأس جافله (٢)
- (١٣) ترى جازريه يرعدان وناره
عليها عداميل الهشيم وصامله (٣)
- (١٤) جبران ثنياً خيرها عظم جاره
بصيراً بها لم تعد عنها مشاغله (٤)

(١) في الحماسة : وقد كان يروى ..
في الاغاني : وقد كان يحمي المحجرين بسيفه ...
في الحماسة البصرية : وقد كان يروى
في الدر المنثور : وقد كان يرمي المشرفي بكفه ..
المشرفي : سيف ينسب الى المشارف ، وهي قرى من ارض العرب .
حجرة الحي : ناحيته ، جلس فلان على حجرة الحي اي ناحيته .
نائله : خيره ، عطاؤه .

(٢) في الاغاني رواية ١١ / ١٥٣ :
جميل اذا استقبلته من امامه
وان هو ولى أشعت

في رواية اخرى لسمط اللآلي :
كريم اذا استقبلته متبسم
ويقول البكري في السمط ان هذه الرواية هي الصحيحة ، وهي احسن لفظا واعرابا ، لان قوله : اذا
استقبلته ... احسن مطابقة لقوله : اما تولى ... وكذلك الرفع في قوله : مبتسم اجود في المعنى ، لانك اذا
نصبته اوجبت انه لا يكون كريما ، الا في حال تبسمه ، واذا رفعته فهو كريم ، مبتسم متى استقبلته او
لاقته .
اشعت الرأس : كان شعره مغبراً متلبداً .
الجافل : الجفال ، وهو الشعر الكثير .

(٣) في الاغاني (في رواية ١١ / ١٥٢) : عليها عدولي السنام وناصله ...
في الدر المنثور : ترى جازريه عداميل الهشيم وحامله .
يرعدان : يضطربان لكثرة اهتمامهما بالضيف .
عداميل : قديمة .
الثني : الولد الذي يعد الولد الاول ، فالاول بكر والثاني ثني .
صاملة : يابسه .

(٤) في الاغاني ١١ / ١٥٣ :
على عينه لم تعد عنه مشاغله

- (١٥) ولو كنتُ في غلٍّ فبِحتُ بلوَعَتِي
إِلَيْهِ لِلاَنْتُ لِي وَرَقَّتْ سَلاسلُهُ (١)
- (١٦) ولما عَصَانِي القَلْبُ أَظْهَرْتُ عَوْلَةً
وَقَلْتُ أَلَا قَلْبُ بِيَقْلَبِي أُبَادُهُ (٢)
- (١٧) أَخُو الجَدِّ إِنْ جَدَّ الرِّجَالُ وَشَمَّرُوا
وَذُو باطلٍ إِنْ شَتَّ أَلْهَاكَ باطِلُهُ
- (١٨) أَشْمٌ إِذَا ما جِئْتَ لِلْعُرْفِ طالِباً
حَبَاكَ بما تَحْنُو عَلَيْهِ أَنامِلُهُ (٣)
- (١٩) ولو لم يكنْ في كَفِّهِ غَيْرُ نَفْسِهِ
لَجَادَ بِها فَتَلَيَّقَ اللهُ سائِلُهُ (٤)

(١) في الزهرة ١ / ٣٧٥ : فلو كنت في كبل وبحثت بلوعتي
اليه لأنت جمه لي سلاسله

نسب لكثير عزة .
في رواية اخرى للقالبي في اماليه ٧ / ٢ نسب البيت لكثير عزة وروي كما سبق
ينظر ديوان كثير البيت ١٥ ص ٤٢٠ .
الغل : الحديد حول الرقية ، وجمعه أغلال .
السلاسل : جمع سلسلة ، الحديد المتصل بعضه ببعض . (مختار الصحاح سلّ وغل) .

(٢) عولة : العولة والعويل : رفع الصوت بالبكاء والصياح .

(٣) عدّ ابن خلكان ٥ / ٤١٧ البيتين من ابيات المديح .
أشم : شم شمما : تكبر ، اشم : مرفوع الرأس .
السيد ذو الانفة ، الكريم .
حباك : حبا حبواً ، حمى ومنع .
العرف : الجود والمعروف .

(٤) يقول ابن خلكان ٥ / ٤١٧ ، ان البيت يوجد في ديوان ابي تمام في قصيدته التي اولها :

اجل ايها الربع الذي خفّ اهله
لقد ادركت فيك النوى ما تحاوله
في ديوان ابي تمام البيت ٣٧ :
غير روحه

- (٢٠) سَيَّبِكِيهِ مَوْلَاهُ إِذَا مَا تَرَفَّعَتْ
عَنِ السَّاقِ عِنْدَ الرَّوْعِ يَوْمًا ذَلَالُهُ (١)
- (٢١) تَرَكْنَا أَبَا الْإِضْيَافِ فِي كُلِّ شَتْوَةٍ
بِمَرٍّ وَمُرْدِيٍّ كُلِّ خَصْمٍ يُجَادِلُهُ (٢)
- (٢٢) طَوِيلُ سَطَى السَّاعِدِينَ عَدْوَرٌّ
عَلَى الْحَيِّ حَتَّى تَسْتَقِلَّ مَرَاجِلُهُ (٣)
- (٢٣) وَكُنْتُ أَعِيرُ الدَّمَعَ قَبْلَكَ مَنْ بَكَى
وَإِنَّتِ عَلَيَّ مَنْ مَاتَ بَعْدَكَ شَاغِلُهُ (٤)

-
- (١) الروع : الفزع والمراد يوم القيامة " يوم يكشف عن ساقٍ ويدعون الى السجود فلا يستطيعون " .
(سورة القلم : الآية : ٤٢) ، ويقال كشفت الحرب عن ساق اذا اشتد الامر فيها ، وترهفهم ذلة .
ذلال : تذلل : استرخى واضطرب ، الذلل والذلال : اسفل الثوب ، يقال : شمّر ذلاً ذلك للأمر ،
اي تجلد لكفايته ، (المنجد ذل ٢٣٧) .
- البيت في شعر زياد الاعجم مع بيت اخر ص ١٠٠ لكنه ليس لزياد لان البيت جزء من قصيدة زينب .
- (٢) مر : مر الظهران ، اسم مكان قريب من المدينة .
- (٣) سطي الساعدين : سطا سطوة : وثب عليه وقهره ، سطي الفرس : ركب راسه وابتعد الخطو ،
تصفه بالسطوة والقوة ، جمال الطول والشكل ، وجمال الخلق والكرم .
- (٤) في شرح ديوان الخنساء ٧٨ : وانت على من مات .

التخريج

الصفحة

العنوان

- ديوان الحماسة او ٢ و ٦ و ١٠-١٢ و ٨ و ١٣-١٤ لزينب
- وفي رواية اخرى نسبت للعجير السلولي
- الابيات ٢١ و ٢ و ٦
- في ديوان ابي تمام البيت ١٩
- البيان والتبيين ١-٣ و ٦ و ١٠ و ١٥ و ٩ و ١٧
- الشعر والشعراء ١-٢ و ٦
- عيون الاخبار بدون نسبة ، البيت السادس
- حماسة البحري ١-٥ و ٨ و ٦ و ٩ و ١٠ و ٢٣
- الزهرة البيت ١٥ نسب الى كثير عزة
- أمالي القالي البيت ١٥ نسب إلى كثير
- ديوان كثير البيت ١٥
- سمط اللآلي او ١٢ و ٢ و ٤ لزينب ولثور بن الطثرية
- ولأمهما ولأبيرد اليربوعي والبيت ٤ للعجير
- الاغاني ٢ و ١٢ و ٦ و ١٣-١٤ و ١٠ و ١١ و ٢٢ و ٢٠
- لزينب
- ونسبت الى وحشية الجرمية وام يزيد بن الطثرية
- ٨-٣ و ٦ و ٥ و ٩ و ٨ و ١٠ و ١١ و ٢٢ و ١١ و ٤ و ٢٠
- الاشباه والانظائر ١-٨ و ٦ و ٩-١٠
- وفيات الاعيان او ١٨ و ١٩ لزينب
- ١٨ و ١٩ لزياد الاعجم
- ١٩ لأبي تمام
- الحماسة البصرية ١-٣ و ٥ و ٩ و ٨ و ٦ و ١١ و ١٠
- لسان العرب ٥-٦ (عذر)
- الدر المنثور ١-٦ و ١٠-١٢ و ٨ و ١٣-١٤
- شرح ديوان الخنساء ٢٣
- اعلام النساء ١-١٦
- شاعرات العرب ١-٦ و ٢٠ و ٢٣

المبحث الثاني

((تحليل القصائد))

الخنساء :

الخنساء ، تماضر بنت عمرو بن الشريد السلمية^(١) ، التي تعد من الطبقة الاولى من شعراء المرثي عند ابن سلام الجمحي^(٢) ، (ومن الشواعر المعترف لهن بالتقدم وهي تعد من الطبقة الثانية في الشعر)^(٣) .
رثت زوجها مرداس بن ابي عامر السلمي^(٤) ، وهي تصور حزنها على فقده بعد أن أصبح الحزن أليفا لها لا ينفك عنها بفقد من سبقه من الاعزاء ، الذين جار عليهم الزمان وأودى بحياتهم في ظروف مختلفة . كان مرداس في موضع على الفرات^(٥) ، وقتل أخو الشاعرة زينب بنت الطرية في القرن الثاني للهجرة اي بعد قرن من الزمن تقريبا في إحدى المعارك .
ورثى ابو تمام احد القادة في العصر العباسي الذي قتل بعد قرنين من مرثية الخنساء وبعد قرن من مرثية زينب ، ولم يكن لذلك القائد صلة قربي بالشاعر ، لذلك نرى اختلافا واضحا في صدق المشاعر بين الشعراء الثلاثة ، الا ان مقدرة كل منهم على التعبير عن الحزن في تأبينه للفقيد تعبر عن مقدرة فائقة في وصف المشاعر وتصوير المواقف الكئيبة التي يمر بها هؤلاء الشعراء ، وتتوحد تعابيرهم في صور العزاء ما بين صادق العاطفة وبين متكلف في وصفها .
فأما قصيدة الخنساء فقد بلغ عدد أبياتها عشرة بحسب ما حققه المرحوم لويس شيخو وهي^(٦) :

لَمَّا رَأَيْتُ الْبَدْرَ أَظْلَمَ كَاسِفًا
أَرَنَّ شَوَادُ بَطْنُهُ وَسَوَائِلُهُ
رَنِينًا وَمَا يُغْنِي الرنِينَ وَقَدْ أَتَى
بِمَوْتِكَ مِنْ نَحْوِ الْقَرْيَةِ حَامِلُهُ
لَقَدْ خَارَ مِرْدَاسًا عَلَى النَّاسِ قَاتِلُهُ
وَلَوْ عَادَهُ كَنَانُهُ وَحَلَائِلُهُ
وَقُتِلَ أَلَا هَلْ مِنْ شِيفَاءٍ يِنَالُهُ
وَقَدْ مَنَعَ الشِّفَاءَ مَنْ هُوَ نَائِلُهُ
وَفَضَّلَ مِرْدَاسًا عَلَى النَّاسِ حَلْمُهُ
وَإِنْ كُلُّهُمْ هَمٌّ هَمَّهُ فَهَوَ فَاعِلُهُ

(١) ينظر الاغاني ١٣٦/١٣ ، وطبقات ابن سلام ص ٨٢ ، وشرح ديوان الخنساء ص ٥ .
(٢) المصدر نفسه .
(٣) شرح ديوان الخنساء / لويس شيخو ص ٧ .
(٤) ينظر الاغاني ٦٤/١٣ طبعة بولاق .
(٥) لم اجد ذكرا للسنة التي توفي فيها مرداس في المصادر والمراجع .
(٦) شرح ديوان الخنساء ٧٧ .

تركت به ليلاً طويلاً ومُنزلاً
تَعَادَى عَلَى ظَهَرِ الطَّرِيقِ عَوَاسِلُهُ
وَسَبِي كَارَامِ الصَّرِيمِ تَرَكْتُهُ
خِلَالَ الدِّيَارِ مَسْتَكِيناً عَوَاطِلُهُ
وَعَدتْ عَلَيْهِمْ بَعْدَ بُؤْسٍ بِأَنْعَمِ
فَكَلَّمَهُمْ تُعْنَى بِهِ وَتَوَاصِلُهُ
مَتَى مَا تَوَازَنَ مَا جَدّاً يُعْتَدَلُ بِهِ
كَمَا عَدَلَ الْمِيزَانَ بِالْكَفِّ رَاطِلُهُ

وفي مقطع آخر ذكره شيخو من ابیات ثلاثة يمكن ان نعهده متمما للقصيدة وهو قول الخنساء (١) :

سَقَى جَدّاً أَكْنَافُ عَمْرَةَ دُونَهُ
مِنَ الْغَيْثِ دِيمَاتُ الرَّبِيعِ وَوَابِلُهُ
أُعِيرُهُمْ سَمِعِي إِذَا ذُكِرَ الْأَسَى
وَفِي الْقَلْبِ مِنْهُ زَفْرَةٌ مَا تَزَايِلُهُ
وَكَنْتُ أُعِيرُ الدَّمْعَ قَبْلَكَ مِنْ بَكِي
فَأَنْتِ عَلَى مَنْ مَاتَ بَعْدَكَ شَاغِلُهُ

وكانت القصيدة في رثاء زوج الشاعرة مرداس الذي دُفِنَ في القرية وهو موضع على الفرات والأبيات الثلاثة الأخيرة في رثاء اخويها في عصر الخلفاء الراشدين وهي امتداد للقصيدة من الناحية الفنية .

بدأ مطلع القصيدة بالتمهيد في وصف صورة الحزن إذ كان البدر في حياتها مشرقاً ، والوجوه ضاحكة مستبشرة الا ان كسوف البدر اوحى لها بصورة الظلام الذي سوف يخيم على حياتها ، إذ أطبق البلاء على صدرها وهي تنظر الى كسوف البدر ، وهذه الدلالة الرمزية لكسوف البدر تشير الى ضعف الشاعرة وخور عزيمتها والكسوف هو احتجاب ضوء الشمس والخسوف احتجاب ضوء القمر (١) . إلا أنّ شدة الموقف جعلت الشاعرة تشير الى الكسوف وقد وردت اللفظة في القرآن الكريم في قوله تعالى (٢) " إِنْ نَشَأْ نُخَسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ " .

(١) شرح ديوان الخنساء ٧٧ ،

(٢) ينظر لسان العرب كسف وخسف .

(٣) سورة سبأ / الآية ٩ .

قال النووي (١) :

(كسفت الشمس والقمر بفتح الكاف وكُسفاً بضمها وانكسافاً وخسفاً وانخسافاً وقيل كسفت الشمس وخسف القمر ، اما قوله : " خسف القمر " قال : ان الخسوف والكسوف يقال لذهاب ضوءهما كله ، وقيل الخسوف في الجميع والكسوف في بعض ، وقيل الخسوف ذهاب لونهما والكسوف تغيره) (١) .

فالخنساء اظهرت تفجعها وحسرتها بخلق اجواء الحزن الذي يلائم طبيعة المصيبة وظروف المأساة ، فكانت الفاظها متتابعة في قولها : (أظلم ، الموت ، قاتله ، منع الشفاء ، هم همّه ، الليل الطويل ، مستكينه ، بؤس ، جدت أسي ، زفرة ، دمع) .

أما زينب بنت الطثرية التي عاشت في اواخر العصر الاموي في ارض اليمامة فقد بكت اخاها (يزيد) بقصيدة بلغت ابياتها - بعد جمعها وتحقيقتها - ثلاثة وعشرين بيتاً ، كان مطلعها (٢) :

أرى الأثل من وادي العقيق مجاورٍ مُقيماً وقد غالت يزيد غوائله

فكانت الالفاظ في مطلع القصيدة تشير إلى عمق الحزن الذي أصاب الشاعرة ورمزت الى تلك الكآبة وذلك الحزن بأشجار (الأثل) التي تنبت في الصحارى وتبعث الكآبة في النفس وتذكر بالوحشة والغربة في ارض واسعة بعيدة عن سكن الشاعرة وتحدد المكان الذي اصيب به اخوها .

وكان وادي العقيق المكان الذي يتردد عليه اخو الشاعرة غدوة ومساءً ، استعملت الشاعرة الفاظاً موحية بالحزن ومشعرة بالالم في قولها (غالت) و (غوائل) وهي مشتقة من الغول أي الهلاك أو الداهية (٣) . ومن الالفاظ الحزينة الاخرى قولها (قُدَّ) اي قطع و (دم) و (مظلوم) و (ورت) و (يروي المشرفي بكفه) ، و (لوعتي) و (أنت) و (عولة) و (سيبيكيه) و (أعيرو الدمع) و (مات) .

فهذه الالفاظ جمعت الشاعرة فيها احزانها ، وصورت مأساتها في ابيات القصيدة . جسدت صورة الحادث بكل تفاصيله ، وجاءت تلك الالفاظ متساقطة مع المعاني التي تكتنه مشاعر الحزن لدى الشاعرة ، حين تجعل اشجار الاثل رمزاً للوفاء والحب في بيئة عاشها الفقيد ، وهي ما تفتأ تذكره وهي تتجرع كؤوس المرارة ، وتعلم أن الموت لا يُبقي احداً ، ولا يخلد ماجداً ، فليس لها غير الذكريات النبيلة والدموع الساخنة .

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ٧٢٦/٣ .

(٢) شعر زينب في هذا البحث .

(٣) ينظر لسان العرب (غول) .

أما أبو تمام فقد بدأ مرثيته لأحد قادة العصر العباسي المعاصر له ، فهو لم يكن اخاً ولا قريباً ولا حبيباً الا ان ابا تمام المعروف بمراثيه الشجية وإغرابه المعهود في معانيه ، وثقافته الواسعة وذكائه الحاد وحفظه الغزير للشعر العربي الموروث ، وصفه الباحثون بقولهم (أبو تمام مدّاحه نواحه) (١) ، فكان ينفذ الى قلوب المتلقين ويداعب عواطفهم ، وهو مع كل ذلك لم يستغن عن تقليد الخنساء وحفظ شعرها والافتداء بها لفظاً ومعنى وفكراً حتى يودع اشعارها بما يقدمه من تأملات ذات نظر عميق كما هو الحال في مرثيته اللامية التي اظهر فيها تفجعه على فقد قائد همام وحسرتة على خسارة الامة – في زمانه – فيه ، اذ انه خلق جواً مفعماً بالاسى يلائم طبيعة الكارثة ، ويلقي بالفاظه ومعانيه في بحار الشعر فيصيد نفائسها ويقدمها للسامعين بأبهى ثوب ، قال في مطلع مرثيته اللامية (٢) :

جَوَى سَاوَرَ الْأَحْشَاءَ وَالْقَلْبَ ُ وَاغْلَهُ وَدَمَعُ يَضِيمُ الْعَيْنَ وَالْجَفْنَ هَامِلُهُ

بدأ الشاعر مرثيته بالدموع بقوله (ودمع يضيّم العين) وقد تقرحت اجفانه من البكاء والالام في الوقت الذي لم نجد فيه مطلعاً يذكر فيه الدمع عند الشاعرتين المتخصصتين بالدموع والبكاء واطهار الحزن ومشاعر الالم الذي لا يمكن اخفاؤه على فقد الزوج او الاخ ، فقلب الشاعر ملآن أسى و (جوى) وهو تعبير ادقّ من الحزن ، وهو مصاب بالحرقة وشدة الوجد (٣) . وفي هذا المطلع يتكلف الشاعر اظهار حزنه وبكائه لفقده ذلك القائد ، ولا اظنه اكثر حزناً من الشاعرتين اللتين فقدتا اعز الناس الى النفس .

ونجد ابا تمام يكثر في قصيدته البالغة أكثر من خمسة وعشرين بيتاً من التصريح الذي كان محطّ عنايته اذ انه كان معنياً بالتطور والتجديد في الشعر ، مثل قوله : (واغله – في صدر البيت ، وهامله – في عجزه) والامثلة على تصريعه في هذه القصيدة كثيرة لا مجال لحصرها في هذا البحث .
وحيث بدأت الخنساء انشادها بعد المطلع بذكر الغرض الاساس للقصيدة ، قالت (٤) :

رَيناً وما يُعني الرنينُ وقد أتى َ َ َ َ َ بموتك من نحوِ القريةِ حامِلهُ

(١) ينظر الادب العربي في العصر العباسي / ١١٣ .

(٢) ديوان ابي تمام ٢٢٥ .

(٣) ينظر لسان العرب (وجد) .

(٤) شرح ديوان الخنساء ٧٧ .

حددت المكان الذي قُتل فيه زوجها في (سواج) و (شواذ) في (القرية) في أعالي الفرات وهي غيضة شجر ملتفة . وكان الرنين ينبىء بالفاجعة ويدق بصوته ناقوس الخطر ويذهل السامع ، مع كآبة الظلام ومطابقته لساعات الليل البهيم مع اطلالة غيمات الحزن الذي ملأ وجدان الشاعرة .

وهي تسمع النبأ المفزع حين اتيت بخبر مقتل (مرداس) ، كانت صورة الموت وفجيرة القتال ترتسم في مخيلة الشاعرة بصورة ذلك الجبل العالي ، ذلك الجبل الأشم الذي لا تصل إليه أيادي الأعداء وهو يبكي لبكائها ويحزن لحزنها ، ويسيل ماؤه متدفقاً حزناً على فقد (مرداس) ، وسقوط تلك السيول يوحى بالقهر والانهازم وحين يشتد نزولها ، وتتقاطر مياه الجبل من الاعالي فتجمع بين طياتها ما تراكم من احزان على مرّ الزمان ، فالخنساء جُبلت على تحمل الالام بمقتل اخويها وابنائها الاربعة وزوجها ، وهذه مصائب لا يتسع لها قلب انسان يمكنه الاستمرار في حياة طبيعية و استعملت في التعبير عن ذلك أفاضاً تدل كلُّها على عظم المصيبة في قولها (أظلم ، أتى بموتك ، خار مرداساً ، عاد كَنّاته ، منع الشفاء) وهي أفعال ماضية كلها ترسم صورة ذلك المشهد الذي يتابع بعضه بعضاً ويجسد العالم المطلق ، النقيض لعالم الحياة والامل ، جسّدته الشاعرة في كلماتها وأناتها .

ونجد ان القصائد الثلاث تركز على ضدّين هما الشاعر والمرثي ، وهذه مرتكزات ضدية يعتمدها الشعراء الثلاثة الخنساء وزوجها ، زينب واخوها ، ابو تمام ومرثيّه ، وهذه الثنائية الضدية تشكل حقلين دلاليين هما موقف الشعراء وصفات من يرثونه ، فأما موقف الشعراء فيتمثل بعدد من الوحدات اللغوية ، كالكلمات والجمل التي تعبّر عن حزن الراثي في قول الخنساء (رأيت ، أظلم ، أتى بموتك ، خار مرداساً الخ) أفعال ماضية متتالية ، او افعال مضارعة تدل على المستقبل مثل (ما يُغني) ، وفي شعر زينب تتجسد الوحدات اللغوية في الافعال الماضية (ورثناه ، تركت ، عصاني ، أظهرت ، كنت ، ... الخ) او افعال مضارعة تدل على المستقبل في قولها (أرى الأثل ، سيبكيه ، أعير الدمع الخ) وحدات لغوية تمثل ثنائيات ضدية تكشف صور العزاء والحنين ، وتوحي بالمستقبل المظلم حين ترى الشاعرة أن أشجار الأثل تجاورها وتذكرها بفقد أخيها وهي ثابتة امام ناظريها مدى الحياة . أما أبو تمام فقد كانت وحداته اللغوية تبدأ بالماضي (ساور الاحشاء ، جرى مجرى دم المرء ، وبثت ، شاء الدهر الخ) وحدات عديدة من الافعال الماضية ، مع وحدات لغوية من الفعل المضارع (يضيم ، يخافه ، يبقي ، سنشكوه) افعال مضارعة ترمز للمستقبل المجهول الذي يصفه الشاعر بمرارته ، وفقد ذلك البطل الهام الذي كان ظلاً يستظل به ابناء قومه ، ، وهذه ثنائيات ضدية نلمسها في دلالاتها على معاني الاعتزاز بالفقيد والصبر على فقده .

والوحدات اللغوية التي تمثل ثنائيات ضدية للمرثي في قول الخنساء (جدثاً ، موتك ، حلمه ، أنت ناهله الخ) مع وحدات ثنائية أخرى تبين التمايز في الوحدات اللغوية والعلاقات التركيبية في استعمال الشرط (لما رأيت البدر) في قول الخنساء والقسم (لقد خار مرداساً) والتحضيض (ألا هل من شفاء) . وفي شعر زينب الشرط (اذا ، لو كنت ، ولما عصاني ولو لم يكن) في هذه الوحدات جميعها

يتأكد التمايز في البنية اللغوية ، مع اختلاف ثنائيات ضدية اخرى في (المؤنث والمذكر) او (المعرفة والنكرة) . وفي قول ابي تمام (اخي عزاء ، رام يناضله ، انت سنام للفخار) سلسلة ثنائيات ضدية تصور حجم المأساة وتشبه الفقيده بأثافي القدر وتتابع الاستعارات التي تصفه بالشجاعة والكرم وحب المكرمات وابتدار المعروف وتكثف الصور وتجعل منه رمزا للبطولة والشهامة العربية المتمثلة ، بالضيافة وانبساط الوجه وطلاقته ، تلك الشخصية الاسطورية المتجسدة بذلك الفتى طواه الدهر طي الرداء ، واختفى في عالم النسيان لدى ابناء قومه ، ممن كان يلجأ اليه في الشدائد ، وفي شعر ابي تمام صور الموت التي تمثل سلطاناً طاغياً طوى تحت جوانحه تلك الشخصية وتلك الشيم التي كانت تغذى ارواح قومه ، ليل نهار ، ويشبه الشاعر فقيدته بالعارض الذي يمطر الناس بمعرفه أفلح ومضى عهده ، وانقضى اجله عن الناس خيره .

ويمكن ان نستخرج من القصائد الثلاث ثنائيات ضدية أخرى تُكثف الصور للمتكلم الحاضر (رأيت أنا) يقابلها للغائب (أرّن هو شواذ) ، (رأيتُ البدر يقابلها الليل الطويل) وفي شعر زينب ثنائيات تشير الى مكان الحادث وتكثف صور المأساة (الاثل ، وادي العقيق) وللزمان (اذا نزل الاضياف) صور تجسد مكان الحادث وزمانه ، فالقدرة على تجسيد الموقف لغوياً ودلالياً اتضحت في تلك الالفاظ السلسلة ، السهلة الممتعة فالقصائد الثلاث تمثل العالم المطلق المفعم بالتناقضات بين اليأس والرجاء ، الموت والحياة ، الحزن والفرح وزيادة عدد النبرات الصوتية تجسد التوتر الداخلي وعنف المشاعر لدى هؤلاء الشعراء ، والتجربة الذاتية ذات الابعاد المتشعبة في تصوير الاحزان تذكر بمعاني التضحية والفداء وعزة النفس .

وتجسد نبر الحزن في تكرار حرف القاف في قول الخنساء (القرية ، لقد ، قلن ، وقد ، الطريق) القاف من الحروف المجهورة القوية التي تؤدي نبراتها الى قرع مسامع المتلقي مثيرة فيه الاشجان ، والشاعرة تصور ذلك الموقف بصور خيالية تشير فيها الى الحليلات والابناء الذين يشبهون الأرام التي تتسابق في ظلمة الليل مستكينة هاربة من صيد الصائد ، وحين تكثر الخنساء من استعمال حرف العطف (الواو) اكثر من ثلاث عشرة مرة تؤكد احساسها بالمرارة ، واستعمالها ادوات الشرط (لما ، لو ، متى) وهي ادوات تفيد توكيد زمن الحزن الذي يخالج الشاعرة .

اما زينب فقد ذكرت الصفات الحميدة التي اتصف بها اخوها المرثي في قولها (1) :

فَتَى قَدْ قَدَّ السَّيْفِ لَا مُتَضَائِلِ
وَلَا رَهْلٍ لِبَاتِهِ وَبَادِلُهُ
فَتَى لَا تَرَى قَدْ الْقَمِيصِ بِخَصْرِهِ

ولكنها توهي القميص كواهلُهُ

(1) شعر زينب في هذا البحث

فأخو الشاعرة فارس شجاع لا يهاب الموت ، وهو يحمل سيفه في رحله وترحاله مما جعل مكان السيف يمزق كاهله ، ولم يكن ذلك ضعفاً او خذلاناً ، فتكرار كلمة (فتى) اربع مرات في قولها (فتى قَدْ قَدْ السيف) و (فتى لا ترى قَدْ القميص) و (فتى ليس لابن العم) و (قَدْ قَدْ) و (القميص) مكررة و (تستقل) و (القوم مكررة) و (أقصى) و (لاقيته) و (رقت) و (القلب) و (تستقل) و (قبلك) فتكرار حرف القاف عند الشاعرتين له صدى بعيد في تجسيد الحزن الذي اصابهما ، وتدفق العاطفة وتلاحق الالفاظ المكررة من جديد في وصف خلق المرثي في قول زينب : (اذا نزل الاضياف) اذا ما حاطها للقوم ، اذا القوم أموا ، اذا جد عند الجد) كلها افعال ماضية مسبوقة بـ (اذا الشرطية الظرفية) تفجر الاحساس بالحسرة على ما فات ، وتبرز الموقف النفسي وتوضح ملامح الشخصية التي من خلالها يتألم المتلقي لسماعها .

وفي قصيدة الخنساء صور خيالية تصور فيها الموت ذلك العدو الكاشح الذي اختار زوجها لينال منه فلا شفاء ، ولا بقاء ، إلا أن صفاته وفعاله الحميدة هي التي ابقت خالداً مخلداً في نفوس محبيه ، بصفاته الحليمة وشجاعته التي جعلته كالمنهل العذب لمن يطلب الحاجة ، او ينزل منزلاً عصيباً ، أو يحلّ وادياً يكره الآخرون النزول به ، فهو يواجه الصعاب ، ويُقبل على المكاره من دون غيره من الابطال ، فالصفات الانسانية التي اكسبته الخلود جعلت الشاعرة تعيش في ظلها ، وتتحسر لفقدائها ، وضياع العمود الذي تستند عليه ويحميها من نوائب الدهر ، ويتجلى ذلك في قولها (١) :

وَأَنْ كُلُّ وَاِدٍ يَكْرَهُ النَّاسُ هَبْطَهُ
هَبَطَتْ وَمَاءٌ مِنْهُ أَنْتَ نَائِلُهُ
تَرَكْتَ بِهِ لَيْلًا طَوِيلًا وَمَنْزَلًا
تَعَادَى عَلَى ظَهْرِ الطَّرِيقِ عَوَاسِلُهُ (٢)

وفي صورة أخرى تقول الخنساء (٣) :

وَسَبِي كَارَامِ الصَّرِيمِ تَرَكْتَهُ
خِلَالَ الدِّيَارِ ۖ مَسْتَكِينًا عَوَاطِلُهُ

اما زينب فنجد في قصيدتها صوراً متعدده من خلال استعمال الفاظ (حمي شيمه ، عامد عذور دريس مفاضة ، يروي المشرفي ، كريم اخو الجد ، أشم ، أبا الاضياف ، طويل سطي الساعدين) وكلها الفاظ تصور صفات المرثي ، وترمز الى حسن خلقه ، وشيمه العربية الاصيلة التي تتجلى في تبسمه عند الشدائد وإغاثة المهوف .

(١) ديوان الخنساء ٧٧ .

(٢) العواسل ، العسال : الذئب ، والعواسل اناث الذئب .

(٣) المصدر نفسه .

ونلاحظ أن أدوات الشرط (إذا ، اما ، لما ، لو) التي توحى للمتلقى باليأس الذي ينتابها ، وتكرر بعض الجمل الخبرية منذ البيت الاول (فتىً قُدَّ ...) و (كريمٌ اذا لاقيته) و (اخو الجدِّ) و اشمٌ اذا ما جنّت) و (طويل سطي) ، كلها جمل خبرية تفهم من السياق وتكثف الصفات ، وتجمع الرموز الاساسية في خلق المرثي . وحين تسترسل زينب في وصف اخيها (يزيد بن الطثرية) تؤكد صفاته الخلقية ، فهو ذو مروءة وله عزة نفس ، وشرف المحتد ، واباء الضيم ، وهو مخلص في حبه للاخرين ، لا يعرف الغدر ولا ينتقم لنفسه ، ولا يأكل لحم اخيه ، إذ قالت (١) :

فتىً ليسَ لِابْنِ العمِّ كالذئبِ ان رأى
بصاحبه يوماً دماً فهو أكله
يسُرُّك مظلوماً ويرضيك ظالماً
وكلُّ الذي حملته فهو حامله

فهو يرضي المكلم ويعطي المحروم ، ويأمر بالخير ، ويتحمل الهموم ويخفف من مشاقها ، وتصوره أخته بصورة أخرى بأنه مضياف يقدم روحه فداءً لضيفه ، قالت (٢) :

إذا نزل الأضياف كان عذوراً
على الحيّ حتى تستقلّ مراجله

ففي هذه الصورة البصرية الحقيقية نجد ضيفه مطمئناً فرحاً ، عند نزوله في ضيافة المرثي .
أما خاتمتا القصيدتين ، فكانت الخنساء تختم مرثيتها بأبيات من الحكمة ، تصب فيها تجارب الحياة ، وخبرات السنين الماضية ، ومرارة صروف الدهر ، ومآسيها المتلاحقة ، قالت (٣) :

متى ما تُوازِنُ ماجداً يُعتدلُ به
كما عدلَ الميزانَ بالكفِّ راطله

فالفقيد (مرداس) زوجها كان سيّداً ماجداً لا تجد من يساويه في المنزلة، او يعادله بكفة الميزان . ففي هذه الصورة تجسّد الخنساء خلق زوجها الذي لا يعادله إنسانٍ آخر .

(١) شعر زينب .

(٢) شعر زينب .

(٣) شرح ديوان الخنساء ٧٧ .

أما الأبيات الثلاثة الأخيرة – للخنساء – التي ألحقتها بهذه القصيدة فتبدو كأنها جزء لا يتجزأ منها ، على الرغم من ان لويس شيخو محقق ديوانها فصل بينهما بفواصل ، الا ان معنى النصين ووزنهما وقافيتهما يخيل اليّ انها قصيدة واحدة (١) :

وأما زينب فقد ختمت مرثيتها بالبيت الاخير الذي يمثل خاتمة مرثية الخنساء نفسها (٢) :

وَكُنْتُ أُعِيرُ الدَّمْعَ قَبْلَكَ مَنْ بَكَى
وَأَنْتَ عَلَى مَنْ مَاتَ بَعْدَكَ شَاغِلٌ هُ

أما أبو تمام الذي صور مرثيِّته بـ صور خيالية تعبر عن أسلوبه المتين ومعانيه التي وصفت بالغرابة فقد صوّر الموت بصورة رجل خبيث يلاحق ذلك المرثي فيقضي عليه ، ويجسد ذلك المعنى ويكتف الصور حين يقدم شكواه الى ذلك الرجل الشرير ، القوي المتسلط ، وهي صورة اخرى من صور الموت الذي لا يتقدم لحظة ولا يتأخر عن وقته ، فيشكوه سراً واعلاناً من دون ان يجد انفراجاً أو حلاً لمحنته فيقول (٣) :

إِذَا مَا جَرَى مَجْرَى دَمِ المرءِ حَكْمُهُ
وَبُئِثَ عَلَى طَرَقِ النفوسِ حِبَائِلُهُ
فَلَوْ شَاءَ هَذَا الدهرُ اقصرَ شره
كَمَا اقصرَتْ عَنَّا لهاةُ ونائلُهُ
سَنَشْكُوهُ إِعْلَاناً وَسِرّاً وَنِيَّةً
شَكِيَّةً مَنْ لَا يَسْتَطِيعُ يُقَاتِلُهُ

(١) شرح ديوان الخنساء ٧٧ .

(٢) شعر زينب في هذا البحث .

(٣) ديوان ابي تمام ٢٢٥ .

ولا أجد اختلافاً بين القصائد الثلاث في تصوير الموت والمرثي والراثي على الرغم من ابتعاد كلٍّ منهم عن الآخر بقرن من الزمن ، إلا ان الفضل الذي لا ينكر يرجع الى مرثي الخنساء التي كانت مادة لثقافة الاجيال التي تبعتها .
ويختم ابو تمام مرثيته بخاتمة تشبه الى حد كبير معاني خاتمة الخنساء في معادلة منزلة المرثي ، ومكانته الاجتماعية فلا يعادله شخص آخر في المنزلة ، اذ ان الفقيه تفرّد بصفات حميدة واخلاق جعلته سناماً عالياً للمجد والفخار ، بحسب رأي الشاعر ، ويكنّي ابو تمام عن ذلك بوصفه بأثافيّ القدر التي يستند عليها ويرتكز عليها إذ لا تستقيم من دونه الحياة . قال ابو تمام (١) :

يُعَادِلُ وَزْنَ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا أَرَى
سِوَى صَحَّةِ التَّوْحِيدِ شَيْئاً يُعَادِلُهُ
فَأَنْتَ سِنَامٌ لِلْفَخَارِ وَغَارِبٌ
وَصِنَوَاكُ مِنْهُ مِنْكَ بَاهُ وَكَاهِلُهُ
وَلَيْسَتْ أَثَافِي الْقَدْرِ إِلَّا ثَلَاثُهَا
وَلَا الرَّمْحُ إِلَّا لِهَذْمَاهُ وَعَامِلُهُ

أما البنية الإيقاعية للقصائد الثلاث فهي معتمده على البحر الطويل (فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن) ، وهذه البنية تعكس البنية الدلالية والبنية التركيبية ، ونجد ذلك في ثنائية ضدية . تتخلل مقاطع القصائد الثلاث ، وفي هذا البحر مجال واسع للتعبير عن احزان القلب ، ومكونات النفس ، ونفت الآلام وبثّ الاحزان من خلاله ، وهذا البحر يتسم بالرصانة والجلالة التي تصور المعنى ، الذي يريده هؤلاء الشعراء من معاناة وشعور بالوحشة ، والم الفراق بكلمات لا يتسع لها غيره .

ونجد ان التصريع في شعر الخنساء يكون في البيت الثالث بقولها : (قاتله وحلائله) ، ونجدها تستعمل الجنس غير التام في قولها : (يناله ونائله) في البيت الرابع ، وتكرير بعض الحروف . ففي البيت الاول كررت (الراء) ثلاث مرات وفي البيت الثاني ثلاث مرات ، وتكرير النون في البيت الرابع ست مرات وهكذا كان للتكرير صدق عميق في انشاء جو حزين في اثناء القصيدة ولحنها الشجي .

اما زينب فلا نجد مكاناً للتصريع في قصيدتها ، الا ان التكرير كان واضحاً في حروفها وكلماتها وقد ذكرناه آنفاً في بداية البحث ، ونجد في اثناء ابياتها نوعاً من رد العجز على الصدر في قولها في البيت الخامس (يسرّك مظلوماً ويرضيك ظالماً) .

(١) شرح ديوان الخنساء ٧٧ .

أما أبو تمام فإنه أكثر من التصريح في قصيدته في مواضع عدّة منها في البيت
الأول في قوله (١) :

جَوَى سَاوَرَ الْأَحْشَاءَ وَالْقَلْبُ وَاغْلُهُ وَدَمَعٌ يَضِيْمُ الْعَيْنِ وَالْجَفْنُ هَامِلُهُ

في قوله (واغله و هامله) ويعمد أبو تمام إلى الطباق في قوله (٢) : (يخافه
و يجامله) فالخوف خلاف المجاملة التي تدل على الهدوء والملاطفة . وقوله (طلُّ
الجود) و (وابله) المطر الخفيف والمطر الغزير .
وهكذا نجد الشعراء الثلاثة في هذه القصائد يعمدون إلى الأسلوب الهادئ
الحزين والنغمة الشجية والبحر الطويل والقافية المتحدة بينهم وكل ذلك سمات دلالية
على وحدة المشاعر تجاه المرثي بذلك الأسلوب الرصين .

(١) ديوان أبي تمام ٢٢٥ .
(٢) المصدر نفسه .

الخاتمة

بعد هذه الرحلة الطويلة في تلك الاجواء الهادئة والقلوب المكلومة واللحن الحنين ، وجدت ان مراثي الخنساء وزينب بنت الطثرية وأبي تمام كلها تعبر عن معنى واحد هو ذكر المرثي وتأبينه ووصف خلقه الكريم وشيمه الاصيلة ويعمد هؤلاء الشعراء الى الاقتداء بمن سبقهم في مطالع القصائد والبحر الطويل والقافية الواحدة والتأثر بشكل خاص بشعر الخنساء الذي بلغ الآفاق في اسلوبه ومعانيه ودلالاته ولا سيما انه كان مادة غنية ارفدت زينب و ابا تمام وغيرهما بثقافة واحدة هي الارث الحضاري القديم للخنساء ومن سبقها من الشعراء مع ما جادت به قرائح النفوس من المواهب والذكاء والمقدرة على التعبير عن العواطف تجاه المرثي .

وقد وجدنا في هذه القصائد الثلاث ثنائيات ضدية اعتمد عليها الشعراء في بث أجزانهم والتعبير عن آلامهم عبر صور حقيقية وخيالية تبين بشاعة ذلك الموت الذي لا يبقي احداً ولا يذر .

ويصور الشعراء في هذه القصائد المكان والزمان الذي حدثت فيه المأساة ، ومدى تأثيرها في نفوسهم ، وأنّ الحزن هو الحزن والألم في مشاعر الناس على الرغم من اختلاف الزمن أو الظرف أو الجنس ، فهي مشاعر إنسانية خالدة في النفوس .

مصادر البحث

- القرآن الكريم .
- الادب العربي في العصر العباسي: د. ناظم رشيد-طبع جامعة الموصل ١٩٨٩ .
- الاشباه والنظائر : الخالديان محمد وسعيد ٣٩٠هـ ، تح د. السيد محمد يوسف ، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٥ .
- اشعار النساء : للمرزباني ٣٨٤هـ ، تح د. سامي العاني ، و أ. هلال ناجي ، طبع دار الرسالة ، بغداد ١٩٧٦ .
- الاعلام : خير الدين الزركلي ، ط الثالثة ، ١٩٦٩ .
- اعلام النساء : عمر رضا كحالة ، ط الثانية ، دمشق ١٩٥٨ .
- الاغاني : الاصبهاني ٣٥٦هـ ، مصورة عن طبعة بولاق ، بيروت .
- الامالي : ابو علي الفالي ٣٥٦هـ - نشر المكتب الاسلامي ، بلا تاريخ
- البيان والتبيين : الجاحظ ٢٥٥هـ ط بيروت ، بلا تاريخ .
- التعليقات والنوادر : ابن زكريا الهجري ٢٩٦هـ ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ١٩٨٠ .
- الحماسة البصرية : صدر الدين البصري ٦٥٩هـ ، وزارة المعارف الهندية ، الهند ١٩٦٤ .
- الدر المنثور في طبقات ربات الخدور : زينب فواز العاملي ١٨٨٩ ، ط بولاق القاهرة ١٩١٤ .
- ديوان ابي تمام : شرح التبريزي ، تح : محمد عبده عزام ، ط ٢ دار المعارف بمصر ١٩٧٠ .
- ديوان الحماسة : ابو تمام ، ٢٣١هـ ، تح : د. عبد المنعم احمد صالح ، ط بغداد ١٩٨٧ .
- ديوان كثير عزة : جمع وشرح د. احسان عباس ، نشر دار الثقافة بيروت ١٩٧١ .
- الزهرة : ابن داود الاصبهاني ٢٩٧هـ ، تح : د. نوري القيسي و د. ابراهيم السامرائي ، ط الاردن ١٩٨٥ .
- زياد الاعجم : جمع وتحقيق د. ابتسام الصفار ، ط مطبعة الارشاد بغداد ١٩٧٨ .
- سمط اللآلي: ابو عبيد البكري ، ٤٨٧هـ ، تح : عبد العزيز الميمني ، عليكرة الهند ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٦ .
- شاعرات العرب : عبد البديع صقر ، ط قطر - الدوحة ١٩٦٧ .
- شرح ديوان الخنساء : لويس شيخو ، طبع بيروت ١٩٦٨ .
- الشعر والشعراء : ابن قتيبة ٢٧٦هـ ، تح : أحمد محمد شاكر ، ط القاهرة ١٩٦٦ .
- طبقات الشعراء : ابن سلام الجمحي ٢٣١ هـ - تح جوزيف هيل - دار الكتب العلمية لبنان .

- لسان العرب : ابن منظور ٧١٠هـ ، مصورة عن ط بولاق ، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر .
- عيون الاخبار : ابن قتيبة الدينوري ٢٧٦ هـ - طبع دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٣٠ .
- معجم الأدباء : مارجليوث ، مطبعة هندية بمصر ١٩٢٥ .
- معجم القاب الشعراء : د. سامي مكي العاني ، طبع النجف ، ١٩٧١ .
- معجم البلدان : ياقوت الحموي ٦٢٦هـ ، ط بيروت ١٩٥٧ .
- المنجد في اللغة والاعلام : لويس المعلوف ، ط ٢٦ ، ١٩٨٢ .
- مختار الصحاح : الرازي ٦٦٠هـ ، طبعة حديثة منقحة بلا تاريخ .
- وفيات الاعيان : ابن خلكان ٦٨١هـ ، تح : محي الدين عبد الحميد ، مكتبة النهضة المصرية ، ط الاولى ، ١٩٤٩ .
- يزيد بن الطثرية : د. حاتم الضامن ، دار التربية للطباعة والنشر والتوزيع ، مطبعة اسعد ، بغداد ، ١٩٧٣ .

ملخص بحث مرثية زينب بنت الطثرية

جمع وتحقيق مع تحليل مرثي الخنساء وزينب وابي تمام

تضمن البحث قصيدة زينب بنت الطثرية التي عاشت في اوائل القرن الهجري الثاني جمعا وتحقيقا . اعقب ذلك تحليل مرثي شعراء ثلاثة يفصل بين كل شاعر منهم قرن من الزمان ، وفي هذا التحليل بينت نقاط التشابه والاختلاف بين رثاء الخنساء ورثاء زينب بنت الطثرية اخيها ، ورثاء ابي تمام احد القادة . وقد كانت النتيجة ان الثلاثة اعتمدوا ذكر الصفات الحسنة للمرثي واتخاذ اسلوب الخنساء في ذكر تلك الصفات مع استخدام البحر الطويل والقافية الموحدة في هذه المرثي والانتهاء بحرف روي واحد لدى الجميع ،الخنساء قدوة الشعراء في مرثيهم وحسن تعبيرهم وعمق تصويرهم لحادثة فقد الاعزاء وتأثيرها في النفوس.

Elegy of Zainab Bint Al-Tathriah

Collection and Revision

With an analysis of elegies of Al-Khansa'a, Zainab and Abi Tamam

The paper is concerned with gathering, the stanzas of the elegy of Zainab Bint Al Tathriah where she expressed her deep sorrow for losing her brother .In addition ,an analysis of the pomes that were influenced by Al-Khansa'a was made so as to highlight similarities and differences between them. The pomes analyzed were written by Al-Khansa'a, Zainab and Abi Tamam.